﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ [الزلزلة: 1 - 3]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بيانُ الأوقاتِ والمَبادئ بعدَ ذكرِ الافتراقِ الجَزائيِّ

لَمّا ختمَ النَّظمُ (سورةَ البيّنة) بجزاءِ الصّالح والطّالح في دارِ البقاء؛ ذكرَ في هذه أوّلَ مَبادئِ تلك الدّار وأوائلَ غاياتها. ومن أوجُهِ التَّناسُبِ أيضًا أنَّهُ لَمّا كان حاصلُ ذلك افتراقَهم على صنفينِ ولم يقَعْ تعريفٌ بتبايُنِ أحوالِهم؛ أعقبَ ذلك بمآلِ الصِّنفين واستيفاءِ جَزاءِ الفريقين المُجمَلِ ذكرُهُم[1]. ومِنْها أيضًا: أنَّه تعالى لَمّا ذكر فيما قبلَها جزاءَ المؤمنينَ والكافرينَ بيَّن في هذه السّورة وقتَ ذلك الجزاءِ وعددًا مِن أماراتِهِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زُلۡزِلَتِ﴾ - ﴿زِلۡزَالَهَا﴾: (زلّ) أصلٌ مُطّردٌ مُنقاسٌ في المُضاعف، تقولُ: زلَّ مِن مَكانه زَليلًا وزلًّا، وتزلزَلَتِ الأرضُ: اضطَرَبَتْ، وزُلزلَتْ زِلزالًا[3]، والزّلّةُ في الأصل: استرسالُ الرِّجل مِن غيرِ قَصْد، والتّزَلْزُلُ: الاضطرابُ. وتكريرُ حروفِ لفظِهِ تنبيهٌ على تكرُّر معنى الزّللِ فيه[4]، وزلَّ عَن مكانِهِ زَلّا - من بابِ ضَرَبَ - : تنحَّى عنهُ، وزلّ زلَلًا من بابِ تَعِبَ: لغةٌ[5]، ولفظُ الزّلزلةِ يدلُّ على تكرارٍ وشِدّةٍ كمًّا وكيفًا[6]، والمرادُ به في الآية: تحرّكَتِ الأرضُ واضطرَبَت اضطِرابًا شَديدًا.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 203.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 253، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 546.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زلّ).
(4) الرّاغب، المفردات: (زلّ).
(5) الفيّوميّ، المصباح المنير: (زلّ).
(6) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 326.

2) ﴿أَثۡقَالَهَا﴾: (ثَقُلَ): أصلٌ واحدٌ يتفرّعُ منهُ كلماتٌ مُتقاربةٌ، وهو ضدُّ الخِفّة، ولذلك سُمّي الجنُّ والإنس الثّقَلين؛ لكثرة العدَد، وأثقالُ الأرضِ: كنوزُها[1]، وثَقُل الشَّيءُ - بالضَّمّ - ثِقَلا وزانُ: عِنَب، ويُسكَّن للتَّخفيف، فهو ثقيلٌ، والثّقل: المَتاعُ، والجمعُ: أثقالٌ[2]، وأعطِه ثِقلَهُ؛ أي: وزنَه[3]، والمَعنى الحقيقيُّ في هذه المادّة واحدٌ، وهو خِلافُ الخِفّة، ثمّ إنّ الثّقلَ مصدرٌ كالصِّغَر والكبر[4]، والمرادُ به في الآيةِ: الكنوزُ والمَعادِنُ أوِ الأمواتُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تسـاؤلُ المؤمن بطريقِ الاستعظامِ، والكافرِ بطريقِ التَّعجُّبِ والاهتِمام

يذكُرُ اللّه تعالى أنَّه إذا حُرّكتِ الأرضُ تحريكًا عنيفًا ليسَ لهُ ما يُشبِهُه أوْ يُدانيه في الهَول والشِّدَّة، ولَفَظتْ بسببِ الزِّلزال كُنوزَها ومَوتاها أحياءً للحِساب والجزاءِ؛ يقولُ كلُّ إنسانٍ: ما بالُها زُلْزِلتْ بهذه الشِّدَّة، ولفظَتْ ما في بطنِها، لما شاهَدوا من الأمرِ الهائِلِ الَّذي بهرَهُم لفَظاعتِه، على أنَّ المُؤمِنَ يقولُ ذلك بطريقِ الاسْتِعْظام، والكافرَ يقولُهُ بطريقِ التَّعجُّب[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ الافتتاحِ بالظَّرفِ الزَّمانيِّ (إذا):

الاهتمامُ بالوَقت مُستلزِمٌ الوُقوع بلا تردُّد

افتتحَ النَّظمُ السّورةَ المُباركة بالظَّرف الزَّمانيّ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾؛ للإخبارِ عن وُقوع البَعث دونَ مجرّدِ تعليقِ الجوابِ بالشَّرط، وللكنايةِ عن تحقُّقِ وقوعِ المؤقَّت، وفي ذلك يقولُ ابنُ عاشور: "المَقْصودُ لَيْسَ تَوْقيت صُدورِ النّاسِ أشْتاتًا ليُرَوْا أعْمالهُمْ، بَلِ الإخْبارُ عَنْ وُقوعِ ذلِكَ وهوَ البَعْثُ، ثُمَّ الجَزاءُ، وفي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثقل).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: (ثقل).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (ثقل).
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 18.
(5) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1988.

ذلكَ تَنْزيلُ وُقوعِ البَعْثِ مَنْزِلَةَ الشَّيْءِ المُحَقَّقِ المَفْروغِ مِنْهُ، بحَيْثُ لا يُهِمُّ النّاسَ إلّا مَعْرِفَةُ وقْتِهِ وأشْراطِهِ، فيَكونُ التَّوْقيتُ كِنايَةً عَنْ تَحْقيقِ وُقوعِ المؤَقَّتِ"[1].

سرُّ التّعبير بـ ﴿إِذَا﴾ الظَّرفيّة:

وُقــوعُ البَعْثِ والــجَــزاء أمــرٌ مُحقَّقٌ

عبَّر النَّظمُ الكريم بـ ﴿إِذَا﴾ الظَّرفيَّة المُتضمِّنة معنى الشَّرط، الدّالّةِ على الزَّمانِ المُستقبلِ دونَ (إنِ) الشَّرطيَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾؛ للدِّلالة على تحقُّقِ وُقوعِ البَعْثِ والجَزاء[2]، قال الرّازيُّ: "كلمةُ: (إنْ) في المُجوَّز، و(إذا) في المَقْطوعِ بهِ، تَقولُ: (إنْ دَخَلْتِ الدّارَ؛ فأنْتِ طالِقٌ)؛ لأنَّ الدُّخولَ يَجوزُ. أمّا إذا أرَدْتَ التَّعْليقَ بما يوجَدُ قَطْعًا؛ لا تَقولُ: إنْ، بَلْ تَقولُ: (إذا) نَحْوَ: (إذا جاءَ غَدٌ؛ فأنْتِ طالِقٌ)؛ لأنَّهُ يوجَدُ لا مَحالَةَ. هذا هو الأصل، فإنِ استُعمِلَ عَلى خِلافِهِ فمَجازٌ، فلَمّا كانَ الزِّلْزالُ مَقْطوعًا بهِ؛ قالَ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾"[3].

تحديدُ العامِلِ في ﴿إِذَا﴾:

حــذفُ عــامِـلِ الـظَّـرف، مُـفيدٌ لإيجازِ الحَذف

اختلفَ المُفسِّرونَ في تحديدِ عاملِ ﴿إِذَا﴾ الظَّرفيَّة في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، فـ "العاملُ في ﴿إِذَا﴾ على قولِ جمهورِ النُّحاة – وهو الَّذي يقتضيهِ القياس – فعلٌ مُضمَرٌ يقتضيهِ المعنى، وتقديرُهُ: (تُحشَرونَ أوْ تُجازَون)، ونحوُ هذا، ويمتنِعُ أنْ يعملَ فيه ﴿زُلْزِلَتِ﴾؛ لأنّ ﴿إِذَا﴾ مضافةٌ إلى ﴿زُلْزِلَتِ﴾، ومعنى الشَّرط فيها ضعيفٌ، وقالَ بعضُ النّحويّين: يجوزُ أنْ يعملَ فيها ﴿زُلْزِلَتِ﴾؛ لأنَّ معنى الشَّرط لا يُفارِقُها"[4]، ويُرجِّحُ الأوّلَ الإيجازُ في الكلام؛ لأنَّه مِن مَقاصِدِ البُلغاء، ولوجودِ الظَّرف الدّالِّ على أنَّ البعثَ والجزاءَ يكونُ عندَ ذلك الوقتِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 491.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 202.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 253.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 510.

استلزامُ الظَّرفِ السُّؤالَ المُقدَّر:

التّشكيكُ في الجَزاء، اقتضَى تحديدَ زمنِ الإحياءِ

عبّرَ النَّظمُ الكريم بالظَّرفِ الزَّمانيِّ الاستقباليِّ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾؛ للدِّلالةِ على وقتِ تحقُّقِ زمنِ البعثِ والجزاءِ؛ إذْ كانوا يشكّونَ في وقوعِهما فأخبرَ النّظمُ بأنَّهما واقِعانِ من خلالِ تعيينِ الوَقت، ولذا فإنَّ: "حرفَ (إذا) إنَّما يُذكَرُ عن سُؤالٍ سبقَ منهم؛ كأنَّهم سَألوا عن الوقتِ الَّذي كانوا يوعَدونَ فيه، وإنْ لم يُذكَرِ السُّؤال؛ لأنَّه قد يكونُ في الجواب بيانُ السُّؤال، وفي السُّؤال بيانُ الجواب، وإنْ لم يُذكَر، فعندَ ذلك قال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أخبَرَهم عن أحوالِ يومِ القيامةِ والحسابِ، ولم يُخبِرهُم عن وقتِها"[1]؛ إذ: "لا سَبيلَ إلى تَعْيينِهِ بحَسَبِ وقْتِهِ، ولَكِنّي أُعَيِّنُهُ بحَسَبِ عَلاماتِهِ"[2].

إطالةُ الجُمَلِ المُضافِ إليها ﴿إِذَا﴾:

التّشويقُ في الكَلام، مُرتبِطٌ بغايةِ النّظمِ ومَقصَدِ المَقام

أطالَ النَّظمُ الكريمُ في سَرْدِ الجُمَلِ الَّتي أُضيفَتْ إليها ﴿إِذَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾؛ للدِّلالة على التَّشويق، ولبيانِ أنَّ الغرضَ الإخبارُ عن الوقوعِ للبَعث في ذلك التَّوقيتِ وأحوالِهِ دونَ الانتظارِ لجوابِ الشَّرط وتعليقِهِ بهِ في قولِهِ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾، وفي ذلك يقولُ ابنُ عاشور: "إطالَةُ الجُمَلِ المُضافِ إلَيْها الظَّرْفُ تَشْويقٌ إلى مُتَعَلِّقِ الظَّرْفِ؛ إذِ المَقْصودُ لَيْسَ تَوْقيتَ صُدورِ النّاسِ أشْتاتًا ليُرَوْا أعْمالَهُمْ، بَلِ الإخْبارُ عَنْ وُقوعِ ذلِكَ وهوَ البَعْثُ، ثُمَّ الجَزاءُ"[3].

سرُّ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿زُلْزِلَتِ﴾ دِلالةً وصيغةً:

مُحاكاةُ الأصواتِ للمَعاني، تصويرٌ دقيقٌ لمَدلولِ المَباني

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ ﴿زُلْزِلَتِ﴾ ماضيًا مُضعَّفًا مَبنيًّا للمفعولِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾؛ للدِّلالة بصيغتِهِ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 10/ 569.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 253.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 491.

الماضيَةِ على تحقُّق وقوعِ الفعل؛ فهو وإنْ كان مستقبلَ المَعنى، لكنَّه عُبِّرَ عن المُستقبل بالماضي للدِّلالة على تحقُّقِ وقوعِ ذلك الأمرِ المُستقبَليِّ. واختيرتِ الصّيغةُ المضعَّفة الرُّباعيَّةُ لمُحاكاةِ صورةِ الزَّلزلةِ الَّتي تضطربُ فيها الأرضُ؛ "فإنَّ تكرُّرَ حروفِ لفظِهِ يُنبِئُ عن تكرُّرِ معنى (الزّلل)"[1]؛ فكأنَّها بتكرارِ المقاطعِ تحكي صورة تلك الحركةِ، قال ابنُ عاشور: "ومَعْنَى ﴿زُلْزِلَتِ﴾: حُرِّكَتْ تَحْرِيكًا شَديدًا؛ حَتّى يُخَيَّلَ لِلنّاسِ أنَّها خَرَجَتْ مِنْ حَيِّزِها؛ لِأنَّ فِعْلَ (زُلْزِلَ) مَأْخوذٌ مِنَ (الزَّلَلِ) وهوَ زَلَقُ الرِّجْلَيْنِ، فلَمّا عَنَوْا شِدَّةَ الزَّلَلِ ضاعَفوا الفِعْلَ لِلدَّلالَةِ بالتَّضْعيفِ عَلى شِدَّةِ الفِعْلِ؛ كَما قالوا: كَبْكَبَهُ؛ أيْ: كَبَّهُ، ولَمْلَمَ بالمَكانِ مِنَ اللَّمِّ"[2]، وبُنيَ الفعلُ للمَجهول للعِلْم بالفاعل[3]، وللدِّلالة على أنَّ الغرضَ ذكرُ الحدَث الَّذي يَشكّونَ في وقوعِهِ دونَ ذكرِ فاعلِهِ؛ لِعلمِهم بأنَّ اللّه تَعالى قادرٌ على ذلك، لكنَّهم يَشكّون في تحقُّقِه وكونِهِ مُرادًا للّه تعالى، قال البقاعيُّ: "ولمّا كان المَخوفُ الزّلزلةَ - ولو لم يُعلَمْ فاعلُها، وكانَ البناءُ للمفعول يدلُّ على سهولةِ الفعل ويُسرِهِ جدًّا - بُنيَ للمفعولِ قوله: ﴿زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ بحيثُ يَعُمُّها ذلك لا كما كانَ يَتّفقُ قبلَ ذلك مِن زلزلةِ بعضِها دونَ بعضٍ وعلى وجهٍ دونَ ذلك"[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المتعدّي دونَ اللّازم:

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ بصيغةِ الفعلِ المتعدّي لمفعولِهِ الَّذي يُعرَبُ نائبَ فاعلٍ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ دونَ الفعلِ اللّازم كما في قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المزّمّل: 14]؛ للدِّلالة على شدَّةِ التَّحريكِ وقوَّتِه، ولذا قال القونويُّ: "وفي التَّعْبيرِ

الاضطرابُ بتحريكِ الفاعلِ أشدُّ منَ التَّحرُّكِ مِن القابِلِ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 231.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 491.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 491.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 202.

بصيغَة المبنيِّ للمَفْعول تهويلٌ عظيمٌ؛ فهو أبلغُ من قولِه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المُزَّمِّل: 14]؛ لأنَّه لازمٌ؛ إذ المَعْنى: تَضطَرِبُ، وهذا متعدٍّ، والاضطرابُ الحاصلُ منَ التَّحريك أشدُّ من الاضطرابِ الحاصلِ بنفسِه الغيرِ المَلحوظِ حصولُهُ من التَّحريك"[1]، في حينِ: "قالَ قَوْمٌ: لَيْسَ المُرادُ مِنْ ﴿زُلْزِلَتِ﴾: حُرِّكَتْ، بَلِ المُرادُ: تَحَرَّكَتْ واضْطَرَبَتْ، والدَّليلُ عَلَيْهِ أنَّهُ تَعالى يُخْبِرُ عَنْها في جَميعِ السّورَةِ كَما يُخْبِرُ عَنِ المُخْتارِ القادِرِ، ولِأنَّ هَذا أدْخَلُ في التَّهْويلِ؛ كَأنَّهُ تَعالى يَقولُ: إنَّ الجَمادَ لَيَضْطَرِبُ لِأوائِلِ القيامَةِ، أما آنَ لَكَ أنْ تَضْطَرِبَ وتَتَيَقَّظَ مِنْ غَفْلَتِكَ"[2].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ بـ (أل):

عرّفَ النَّظمُ الكريمُ بـ (أل) لفظَ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾؛ للدِّلالةِ على الجنسِ الصّادقِ بالاستغراقِ المتحقِّقِ في جميعِ نواحي الأرض بحيثُ لم يبقَ جزءٌ منها إلّا وتزلزلَ واضطَرَبَ وتحرَّكَ بحركةٍ عَنيفة، والغرضُ من العُموم تفخيمُ حالةِ الزَّلزلةِ وتصويرُ شدَّتِها وكَمالِها. قال القونويُّ: "ولم يَذكُرْ تحريكَ (الجبالِ) كما في قَوْلِه تَعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المُزَّمِّل: 14]؛ لقولِه: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، ولا يبعُدُ تعميمُ الأرْض إلى (الجبال)"[3].

زَحفانٌ وزِلزال يُحرِّكُ الأرضَ وما علَيها مِن جِبال

وجهُ التّعبيرِ بالمفعولِ المُطْلَق ﴿زِلْزَالَهَا﴾:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالمَصدرِ المُؤكِّد ﴿زِلْزَالَهَا﴾ مَفعولًا مُطلقًا في قولِه تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾؛ للإشارة "إلى هَوْلِ ذلكَ الزِّلْزالِ؛ فالمَعْنى: إذا زُلْزِلَتِ الأرْضُ زِلْزالًا"[4]، فـ"عظَّم هذا الزِّلزالَ

تهويلُ الزِّلزال بتوكيدِ المَصدرِ للأفعال

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 388.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 254.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 388.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 491.

وهوَّلَهُ بإبهامِه؛ لِتذهَبَ النَّفسُ فيهِ كلَّ مَذهَب، فقالَ كاسِرًا الزّاءَ؛ لأنّه مصدرٌ، ولو فتحَها لكانَ اسمًا للحَركةِ"[1].

دلالةُ المَصدرِ ﴿زِلۡزَالَهَا﴾ مادّةً وصيغةً:

وقوعُ الاضطِراب دالٌّ على هَوْل الحَدَث والمُصاب

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالمصدرِ ﴿زِلۡزَالَهَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾؛ للدِّلالة به إمّا على مصدرِ المبنيِّ للمفعولِ أوِ الحاصلِ بالمَصدر، قال الشِّهابُ الخفاجيُّ عندَ قولِ البيضاويِّ: "اضطرابَها المُقدّر" ما نصُّهُ: "الاضطرابُ تفسيرٌ للزِّلزال؛ لأنَّه أُريدَ به الحاصلُ بالمصدرِ أوْ هو مصدرُ المبنيِّ للمجهولِ؛ لتقدُّم الفعلِ المَجهولِ عليه، وأصلُ معناهُ: التَّحريكُ"[2]، ورجَّحَ القونويُّ الدِّلالةَ الثّانيةَ بقوله: "مصدرٌ مبنيٌّ للمَفْعول؛ لوقوعِه بعدَ الفعْل المجهولِ؛ فإنَّ معناه كونُهُ مُحرَّكًا - بفتح الرّاء -، وما ذكرَهُ من الاضطِرابِ حاصلُهُ، والاضطرابُ هوَ الحركة"[3]، وفي ذلك دلالةٌ على تعظيمِ فاعِلِ التَّحريك وأنَّ التَّحرُّكَ كانَ شَديدًا، بقيَ أنَّ النَّظمَ عبَّر بهذه الصّيغة المصدريَّة المكرَّرة المَقطَع: "تنبيهًا عَلى شدَّةِ الحَركة معَ التَّكرُّرِ"[4].

نكتةُ العدولِ إلى الإضافةِ في ﴿زِلۡزَالَهَا﴾:

الزِّلزلةُ اللّائقة بالقُدرةِ الفَريدةِ الكامِلة

عدلَ النَّظمُ الكريمُ عَن لفظِ المَصدرِ (زِلزالًا) إلى الإضافةِ ﴿زِلۡزَالَهَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾؛ للدِّلالةِ بها على التَّفخيم أوِ الاختصاص، بمعنى الزِّلزالِ المَخصوصِ بها، وهي الرّجّةُ الَّتي لا غايةَ وراءَها[5]، والإضافةُ فيه إمّا للعَهْدِ بناءً على الاحتمالِ الأوَّلِ الآتي أوْ للاستغراقِ العُرفيِّ المَقصودِ بهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 203.
(2) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 8/ 387.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 388.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 388.
(5) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/ 525.

المُبالغةُ على الاحتمالينِ الأخيرَينِ الآتيينِ[1]، قال القونويُّ مُعَلّقًا على الصّوَرِ الثّلاثةِ لتَوجيهِ البيضاويِّ للإضافةِ بقولِه: "اضطِرابَها المُقدَّر لها، أوِ المُمكنَ لَها، أوِ اللّائقَ بها في الحِكْمَة" ما نصُّهُ: "توجيهٌ للإضافةِ، مع أنَّ الظّاهرِ في مثلِه: (زِلزالًا)، ولعلَّ المُرادَ به بيانُ شدّتِها، وإلّا فهو معلومٌ؛ كأنَّه قيلَ: الزِّلزالُ الشَّديدُ الَّذي لا غايةَ وراءَه؛ لأنَّه قُدِّرَ هكذا بمُقتضى الحِكْمَة"[2]. فالإضافةُ للعهدِ للإشارةِ إلى مُغايرتِه للزَّلازلِ المَعهودةِ، وقولُهُ: (أوِ المُمكنَ لها أوِ اللّائقَ بها في الحِكْمَة) "توجيهٌ للإضافةِ، وأنَّ الإضافَة للاسْتغْراقِ العُرفيِّ؛ نحوُ: (جمَعَ الأميرُ الصّاغةَ) أي: صاغةَ بلدِه، أشارَ إليه بقولِه: (أوِ المُمكنَ لها)، وهذا أيْضًا اضطرابُها المقدَّرُ لها. والفرقُ ملاحظةُ التَّقديرِ دونَ الإمكانِ في الأوّلِ وبالعَكسِ في الثّاني. وكذا الكَلامُ في قولِه: (أوِ اللّائقَ لها في الحِكْمَة)؛ فعُلِم منهُ أنَّ (أوْ) لمنْعِ الخُلوِّ فقط، والغرضُ في الكلِّ بيانُ كمالِ شدَّةِ الاضطِرابِ والحَركةِ؛ لوقوعِه بتحريكٍ عنيفٍ"[3]، أي: تحرُّكَها واضطرابَها الَّذي يَحِقُّ لها في مُناسبتِه لعَظمةِ جُرْمِ الأرضِ وعَظمةِ ذلك اليوم، ولَو شُرِحَ بما يليقُ بهِ؛ لطالَ الشَّرحُ[4]، ولذا قال أبو السُّعود: "أي: الزِّلزالُ المَخصوصُ بَها على مُقتضى المَشيئةِ المبنيَّةِ على الحِكَم البالغة، وهو الزِّلزالُ الشَّديدُ الَّذي لا غايةَ وراءَه، أوْ زلزالَها العجيبَ الَّذي لا يُقادَرُ قَدرُهُ، أوْ زلزالَها الدّاخلَ في حيِّزِ الإمكانِ"[5]، ومثَّلَ لهُ الزَّمخشريُّ إيضاحًا فقال: "معناهُ ﴿زِلْزَالَهَا﴾ الَّذي تستوجِبُهُ في الحِكمة ومَشيئةِ اللّه، وهو الزِّلزالُ الشَّديد الَّذي ليسَ بعدَهُ، ونحوُهُ قولُك: (أكرِمِ التّقيَّ إكرامَهُ، وأهِنِ الفاسِقَ إهانَتَهُ)، تريدُ: ما يَستوجِبانِهِ منَ الإكرامِ والإهانةِ، أوْ زلزالَها كلَّهُ وجميعَ ما هو مُمكِنٌ منهُ"[6]، قال ابن عطيَّة: "﴿زِلْزَالَهَا﴾ أبلغُ من قولِه: (زلزالًا) دونَ إضافةٍ إليها، وذلك أنَّ المصدرَ غيرَ مُضافٍ يقَعُ على كلِّ قدرٍ من الزِّلزالِ وإنْ قلَّ، وإذا أُضيفَتْ إليها وجبَ أنْ يكونَ على قدرِ ما يَستحِقّهُ ويَستوجِبُهُ جِرْمُها وعِظَمُها، وهكذا كما تقولُ: (أكرمتُ زيدًا كرامةً) فذلك

(1) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 8/ 387.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 388.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 389.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 203.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 187.
(6) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 783.

يقَعُ على كلِّ كرامةٍ وإنْ قلَّتْ بحسَبِ (زيد)، فإذا قلتَ: (كرامتُهُ) أوجبتَ أنّك قد وفّيْتَ حقَّه"[1].

نكتةُ إضافةِ المَصدَرِ إلى ضَميرِ الأرض:

أضافَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ المَصدر (زِلزال) إلى خصوصِ ضميرِ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾؛ للدِّلالة على الاختصاصِ المُفيدِ "تَمَكُّنَهُ مِنْها وتَكَرُّرَهُ حَتّى كَأَنَّهُ عُرِفَ بِنِسْبَتِهِ إلَيْها؛ لِكَثْرَةِ اتِّصالِهِ بها"[2].

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ بينَ ﴿زُلْزِلَتِ﴾ و﴿زِلْزَالَهَا﴾:

تكرارُ الحُروف يُفيدُ الخُروجَ عنِ المألوف

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بجناسِ الاشتقاقِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾؛ إذ اتّفقَ كلٌّ من الفعلِ والمَصدر في المعنى وأغلبِ الحُروف، لكنَّهُما اختلفا في الفعليَّة والمصدريَّة، والغرضُ من ارتكابِ الجناسِ الدّالِّ على شدّة الاضطرابِ وفَظاعَتِهِ وتكرُّرِه كما تدلُّ عليه تكرارُ المقاطعِ في الصّيغتين الفعليَّة والمصدريَّة، والفعلُ دالٌّ على الحدَث والاسمُ مفيدٌ للثّبوت، فيكونُ حدَثًا شديدًا من قوّتِه وشدَّتِه كأنَّه ثابتٌ لا يَتزحزَحُ.

توجيهُ العَطفِ بـ(الواو) دونَ (الفاء):

ترك فاءِ التَّفريع لغَرابةِ الحَدَث الفَظيعِ

عطفَ النَّظمُ الكريم إخراجَ الأرض أثقالَها على تزلزُلِها بـ(الواو) الدّالّةِ على مُطلقِ الجمعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ دونَ (الفاء)، معَ أنَّ الإخراجَ ناشئٌ عن الزَّلزلة المؤدّيةِ للانشقاقِ فيها المُؤدّي إلى إخراجِ ما فيها منَ الدَّفائن؛ لبيانِ أنَّ كلَّ حدثٍ من شدَّتِه وغرابتِهِ مُستقِلٌّ عنِ الآخَر، قال البقاعيُّ: "ولمّا كان الاضطرابُ العظيمُ يَكشِفُ عنِ الخفيِّ في المُضطرِبِ قالَ:

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 510.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 492.

﴿وَأَخۡرَجَتِ﴾"[1]، لكنَّهما يقترنانِ في الذِّهن؛ لِما بينهُما من جامع عقليٍّ يَربطُ بينَهُما. قال ابنُ عاشور: "وَإخْراجُ الأرْض أثقالَها ناشئٌ عَنِ انْشِقاقِ سَطْحِها، فتَقْذِفُ ما فيها مِنْ مَعادِنَ ومياهٍ وصَخْرٍ، وذلكَ مِنْ تَكَرُّرِ الانْفِجاراتِ النّاشِئَةِ عَنِ اضْطِرابٍ داخِلَ طَبَقاتِها وانْقِلابِ أعاليها أسافِلَ والعَكْسِ"[2]. وعلّلَ القونويُّ اختيارَ (الواو) على (الفاء) بقولِهِ: "فعُلِمَ ممّا تقدّمَ أنَّ الإخراج مُسبّبٌ عن الزِّلزال؛ فالظّاهرُ (فأخرجَتِ الأرْض) بالفاء، لكنِ اخْتيرَ (الواو)؛ للإحالةِ عَلى ذهنِ السّامع، أوْ للتّنبيهِ عَلى أنَّه بمجرّدِ القُدرةِ القاهرة لا بسَبَب الزِّلزال؛ لأنّه سببٌ عاديٌّ لا موجِبٌ"[3].

سرُّ التّعبيرِ بالفِعل ﴿وَأَخۡرَجَتِ﴾ دلالةً وصيغةً:

إخراجُ المُحتويات لِتفريغِ الأرضِ مِنَ المُقوِّمات

عبّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ (الإخراج) ماضيًا مَبنيًّا للمعلومِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾؛ للدِّلالة على تحقُّقِ وقوعِ الإخراجِ في الزَّمن المُستقبل، وأنَّ ذلك أمرٌ مقطوعٌ بحصولِهِ؛ لأنَّ الزِّلزالَ يَستلزِمُهُ ويَقتضيهِ. وعبَّر بصيغةِ المبنيِّ للمعلوم؛ لبيانِ استجابةِ الأرضِ للإخراجِ بعدَ أنِ اضطَرَبتْ وتزلزَلَتْ، ولذا لم يَبنِ النَّظمُ الفعلَ للمفعولِ؛ ليكونَ مُتّسِقًا معَ سابقِهِ ﴿زُلۡزِلَتِ﴾. وفي إلحاقِ همزةِ التّعدية للفعلِ اللّازم إشارةٌ إلى إيصالِ تأثيرِ فعلِ الأرض إلى المفعولِ؛ إذْ بعدَ أنْ تزلزلَتْ وانشقَّت بدأتْ تُخرجُ أثقالَها وما فيها، كما أنَّ فعلَ (الإخراج) يدلُّ على أنَّ هنالك دفائنَ وأثقالًا قد استقرَّتْ في جوفِ الأرض، ثمَّ بدأتِ الأرضُ تلفِظُها وتُخرِجُ ما فيها، وفي ذلك إشارةٌ إلى التَّأمُّل فيمَن وضعَ تلك الأثقالَ في الأرضِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 204.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 491.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 391.

نكتةُ العُدولِ عن المبنيِّ للمَفعول في ﴿وَأَخۡرَجَتِ﴾:

الأرضُ تستجيب؛ فما بالُ الإنسانِ لا يـسـمَـعُ ولا يُجيب؟

عدلَ البيانُ القرآنيُّ عن المبنيِّ للمجهول إلى المبنيِّ للمعلوم في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾، فلم يقُل: (وأُخرجَتْ أثقالُها) بعدَ أنْ عبّرَ بالمبنيِّ للمجهولِ في قوله: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾؛ للدِّلالة على أنَّ الزّلزلة بقدرةٍ باهرةٍ يَنبغي الالتفاتُ إليها والتَّأمُّلُ في عَظَمَتِها؛ فلم تتزلزلْ وحدَها بل بفعلِ فاعلٍ تعدّى إليها، وأمّا الإخراجُ فأمرٌ مُطاوِعٌ لتلك الزَّلزلة؛ إذِ استجابتِ الأرضُ بعدَ الانشقاق فأخرجَتْ ما فيها من أحمالٍ وأثقال.

بلاغةُ تكرارِ لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾:

أثَـرُ الـغَـيْريَّـة في تـكـويـنِ عـلاقـةِ المَـجـاز بـالـكـلّيَّة والجُزئيَّة

كرّرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾ معَ أنَّ المقامَ مقامُ الإضمارِ؛ لتقدُّمِ ذكرِها في قولِهِ: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾؛ فلم يقُلْ: (وأخرجَتْ أثقالَها)؛ إمّا للعَيْنيَّة بينَهما؛ فيكونُ الغرضُ قصدَ التّهويل[1]، أوْ زيادةَ التَّقرير والتَّقرُّر[2]، وإمّا للغيريَّة؛ فيكونُ فيه إيماءٌ "إلى تُبَدَّلُ الأرضِ غَيْرَ الأرضِ، أوْ لأنَّ إخراجَ الأثقالِ حالُ بعضِ أجزائِها"[3]، ووضَّح القونويّ ذلك بقولِهِ: "أوْ لأنَّ إخراجَ الأثقالِ حالُ بعضِ أجزائها، والأرْضُ لتشابُهِ أجزائِها يُطلَقُ عَلى البعضِ كإطلاقِهِ عَلى الكلِّ؛ فالمُرادُ بالأوّلِ الكلُّ، وبالثّاني البعضُ؛ فهي مُغايرةٌ لها، وأمّا القَوْلُ (أوِ الإيماء إلى تبدُّلِ الأرْض) فضعيفٌ؛ لأنَّ المُخرجَ للأثقال هوَ الأرْضُ الموجودةُ الآنَ"[4]. كما أنَّ التَّكرارَ للعينيَّة أفادَ أنَّ الإخراجَ وقعَ من جميعِ الأرضِ فأفادَ العُمومَ، في حينِ لو اكْتُفيَ بالضَّميرِ؛ لصَدَقَ بخُروجِ الدَّفائنِ من البعضِ، فكانَ التَّكرارُ لها بـ (أل) دالًّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 492.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 233.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 187.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 390.

على العُموم، قال البقاعيُّ: "وأظهَرَ ولم يُضمِرْ؛ تحقيقًا للعُموم، فقال: ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ أي: كلُّها[1].

بلاغةُ المَجازِ العَقليِّ في ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ﴾:

إخـراجُ الأرض تصويرٌ فخمٌ لمَشهَدِ العَرْض

أسندَ النّظمُ الكريمُ الإخراجَ إلى الأرضِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ إسنادًا مجازيًّا عقليًّا[2] من إسنادِ الشّيءِ إلى غيرِ مَن هو لهُ؛ لأنَّها لمّا تزلزلَتْ وتشقَّقتْ أخذَتِ الدّفائنُ تَظهَرُ منها وتبرُزُ للعيان، فالعلاقةُ على حدِّ (نهرٌ جارٍ) أي: يُجرَى فيه، فالأرضُ لم تُخرِجْ بلْ أُخرِجَ منها بعدَ التَّشقيقِ لَها، والغرضُ من التَّجوُّزِ إفادةُ كمالِ القُدرةِ الإلهيَّة على جميعِ المَخلوقات وتهويلُ المَشهَدِ بالعظمةِ الباهرة، وقد يستفادُ من كلامِ البقاعيِّ إرادةُ الحقيقةِ العقليّة بقوله: "يُعطيها اللّه قوّةَ إخراجِ ذلك كلِّه؛ كما كانَ يُعطيها قوّةَ أنْ تُخرِجَ النَّبتَ الصَّغير اللَّطيف الطّريّ الَّذي هو أنعَمُ منَ الحَرير؛ فيشقُّ الأرضَ الصّلبةَ الّتي تكِلُّ عنها المَعاولُ والحَديد"[3].

نكتةُ جمعِ لفظِ ﴿أَثْقَالَهَا﴾:

استُفيدتِ الكثرة مِـن إضـافـةِ ما وقـعَـتْ عـليـهِ الزَّلزلة

جمعَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ (ثِقْل) - بكسرِ فسُكونٍ - في قولِه تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾؛ للدِّلالة على إخراجِ كلِّ ما يصدُقُ عليه أنّه ثقلٌ عليها، فالجمعُ وإنْ كان للقلَّةِ إلّا أنَّه دالٌّ على الكثرة؛ لأنّ اللَّفظ لم يُجمَعْ إلّا بهذا الجمع؛ فيكونُ صالحًا للكَثرةِ والقلَّة. واستُفيدتِ الكثرةُ منَ الجمعيَّة بإضافةِ الجَمْعِ إلى ضميرِ الأرضِ المُتزلزلة، فتكونُ الأثقالُ مُمتدّةً على جميعِ أجزاءِ الأرضِ ونَواحيها. قال الهرريُّ: "والأثقالُ كنوزُ الأرضِ ومَوْتاها، جمع (ثِقْل) بكسرٍ فسكونٍ، وأمّا (ثَقَلٌ) محرّكةً فمتاعُ المُسافرِ وحَشَمُهُ، والمَعنى:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 204.
(2) تفسير المظهريّ: 10/ 392.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 204.

وأخرجَتِ الأرضُ ما في جَوْفِها مِن دَفائنِها وكُنوزِها"[1]، وقال بعضُ أهل العلم إنّ: "أثْقالَها: أسْرارُها، فيَوْمَئِذٍ تُكْشَفُ الأسْرارُ، ولِذلِكَ قالَ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فتَشْهَدُ لَكَ أوْ عَلَيْكَ"[2].

دلالةُ الكِنايةِ في ﴿وَأَخْرَجَتِ﴾:

خُروجُ الأثْقال يَستلزِمُ الانخسافَ في الحال

عبّرَ النَّظمُ الكريم بأسلوبِ الكِناية في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾؛ إذْ ذكرَ النَّظمُ الإخراجَ للأثقال، وأُريدَ به لازمُهُ وهو الانخسافُ، فإنّ: "الأثقالَ جمعُ الثِّقْل، والنّاسُ: ثِقْلٌ على الأرض إذا كانوا على ظَهْرِها، فإذا ماتوا وكانوا في بَطنِها كانوا ثِقْلًا لها؛ فذلك قولُهُ: ﴿أَثْقَالَهَا﴾؛ وهي الأبدانُ إذا نُشِرت"[3]، والأرجحُ أنَّ النّاسَ مِن جملةِ ما يصدقُ عليه لفظُ الأثقال، قالَ البِقاعيُّ: "أي: ممّا هو مَدفونٌ فيها كالأمواتِ والكُنوز الَّتي كانَ أمرُها ثَقيلًا على النّاس، وهو جمعُ ثِقْل - بالكَسر - "[4]. ويُطْلَقُ (الثِّقلُ) عَلى المَتاعِ النَّفيس[5]، بل الَّذي ينسابُ إلى الذِّهن ما في الأرضِ مِن ركائزَ ثقيلةٍ تحملُ القشرةَ الأرضيَّة؛ وعندَ الزّلازلِ تتشقَّقُ الأرضُ فتخرجُ تلك المكوِّناتُ فيعقُبُها انخسافٌ، فيكونُ الإخراجُ للأثقال كنايةً عنهُ، قال الشِّهاب: "وتخصيصُهُ بالدَّفائنِ كما في الكشّاف لا وجهَ له"[6].

تعريفُ (أثقال) بالإضافةِ الى الضَّمير:

الاختصاصُ والفَخامة مُنبثان عنِ الجَسامَة

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (أثقال) إلى ضميرِ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾؛ للدِّلالة على التَّعيينِ والتّخصيصِ أوِ التَّفخيمِ والتَّعظيم؛ إذ يكتسِبُ المضافُ دلالةً اتّصاليّةً من إضافتِهِ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 233.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 254.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 24/ 225.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 204.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 491.
(6) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 8/ 387.

إلى الشَّيء، فيكونُ المراد أنَّ الأثقالَ الخارجةَ تكونُ متّصلةً بالأرضِ المُزلزَلةِ دونَ ما عداها، وأنَّها أثقالٌ مُتمكِّنة فيها قارّةٌ عليها، قالَ البقاعيُّ: "مُتأثِّرًا ذلك الإخراجُ عن ذلك الزِّلزال، كما يتأثّرُ عن زلزالِ البِساط بالنَّفضِ إخراجُ ما في بطنِهِ وطَيِّهِ وغُضونِهِ مِن وسَخٍ وتُرابٍ وغيرِهِ، وما كان على ظَهرِها فهو ثِقْلٌ علَيها"[1]، فقد فُرِّقَ بينَ الثّقل عَلى الشَّيءِ والثّقلِ له؛ بأنّه إذا كانَ الشّيءُ في بطنِ الأرْض فهو ثقلٌ لها، وإذا كان فوقَها فهو ثقلٌ عليها، فالإضافَةُ هنا لاميَّةٌ؛ أي: أثقالٌ لها[2]، أوْ أُريدَ تفخيمُ تلك الأثقال فأُضيفَت إلى الأرضِ الكبيرة الحَجْم؛ ليَحدُثَ تهويلٌ من خروجِ تلك الأثقال العَجيبة القارَّة فيها.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في ﴿أَثْقَالَهَا﴾:

لا أمـانَ لـلأرضِ ما دامَتِ الأثقالُ متحيِّنةً للعَرْض

استعارَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (الأثقال) الموضوعَ لمتاعِ البَيت وأثاثِه أوْ ما تَحملُه المرأةُ في بطنِها من حِمْل في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾؛ للدِّلالة على أنَّ ما على الأرضِ وما فيها من أشياءَ كالأثاث المؤقّتِ الَّذي يتحيَّن للإخراج، وكالجنينِ في بطنِ أمِّه القابلِ للخُروج؛ فلا يَنبغي للعاقل الاطمئنانُ وهو يعيشُ على أرض يكونُ ما فيها مُتحيِّنًا للخُروج مُعلنًا بخروجِهِ عن انصداعاتٍ وانخسافاتٍ لا تصمُدُ معها حياةٌ، قال القونويُّ: "الثَّقَلُ محرّكة متاعُ المُسافر، وكلُّ نفيسٍ مَصونٌ، شُبِّه ما في بطنِ الأرْض بالأمتعةِ بكَونها معمورةً بها، فالدّفائنُ والمَوتى لها كالمتاعِ للبُيوت في سببيَّةِ الزّينة، فذكر لفظَ المشبّه بهِ وأريدَ المشبّهُ مع كونِ النِّسبة مَجازيّةً كما مَرَّ، وهذا على الاستعارة. ويجوزُ أنْ يكونَ بكسرٍ فسكونٍ بمعنى (حِمْل البَطن) على التَّشبيه أيضًا؛ لأنّ الحِمْل يُسمَّى ثِقلًا"[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 204.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 391.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 391.

توجيهُ العَطفِ بـ(الواو):

اقترانُ القول بالزِّلزالِ وخُروج أنواعِ الثِّقْل

عطفَ النّظمُ الكريمُ بـ (الواو) قولَهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾؛ للدِّلالةِ على الجمعِ والاقترانِ بينَ وُقوعِ الزِّلزال وإخراجِ الأثقالِ وقَولِ الإنسان؛ إذِ الدَّهشةُ الَّتي تنتابُ الإنسانَ من ذَينِك الحدَثينِ المُخيفينِ تدعو الإنسانَ للقولِ والحَديث. وإنَّما لم يَعطِفْ بـ (الفاء) مع أنَّ القولَ مسبَّبٌ ومُفرَّعٌ عمّا قبله؛ لإعطاءِ كلِّ حدثٍ من تلك الأحداثِ استقلاليّتَهُ نظرًا لغرابةِ ما يحدُثُ واتِّكالًا على فهمِ السّامعِ.

دلالةُ التَّعبير بفعلِ (القول) ماضيًا:

وقوعُ الأحداثِ المُخيفة داعيةٌ لتساؤُلاتِ العَديدة

عبّر البيانُ القرآنيُّ بفعلِ (القَوْل) ماضيًا في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾؛ للدِّلالةِ على وُقوعِ ذلك القولِ على سبيلِ التَّحقُّقِ والحُصول؛ فهو وإنْ كان مُستقبلًا لكنّه أمرٌ واقعٌ لا مَحالة، وعلَّل البقاعيُّ إيرادَ الفعلِ بقولِهِ: "ولمّا كان الإنسانُ إذا رأى هذا عَجِب لهُ ولَم يُدرِكْ سببَهُ؛ لأنَّه أمرٌ عظيمٌ فظيعٌ يُبهِرُ عقلَهُ ويَضيقُ عنهُ ذرعُهُ؛ عبَّرَ عنهُ بقولِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾"[1].

دلالةُ تركِ المَقولِ لهُم:

تحقيقُ التَّعميم لتجاوُزِ الحدَثِ الحدَّ العَظيم

تركَ النَّظمُ الكريم ذِكرَ المَقولِ لهُم في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾؛ للدِّلالة على الشُّمول والصِّدق في قولِ بعضِهم لبعضٍ، أوْ قولِ كلِّ أحدٍ في نفسِهِ: "حَتّى اسْتَوى في ذلكَ الجَبانُ والشُّجاعُ، والطّائشُ والحَكيمُ؛ لأنَّهُ زِلْزالٌ تَجاوَزَ الحَدَّ الَّذي يَصْبرُ عَلى مِثْلِهِ الصَّبورُ"[2].

دلالةُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

مِن مُرجِّحاتِ الاستغراقِ وقوعُ الأحداثِ الواسعةِ النِّطاق

عرّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ بـ (أل) في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾؛ للدِّلالةِ إمّا على الاستغراقِ الشّاملِ للمُؤمنِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 205.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 492.

والكافِرِ منَ الأحياءِ حينئذٍ[1]، قال الهرريّ: "وقالَ كلُّ فردٍ من أفرادِ النّاس لِما يَغشاهُم منَ الأهوالِ ويلحَقُ بهم مِن فرْطِ الدَّهشةِ وكَمالِ الحَيرة"[2]، أوْ للدِّلالة على العَهْدِ الصّادقِ بنوعِ الكافِرِ؛ فيفيدُ الاستغراقَ النّوعيَّ أيضًا بالنِّسبة للكافرينَ وحدَهُم. ورجّح القونويُّ الاستغراقَ مُعلِّقًا على قولِ البيضاويِّ: "وقيلَ المُرادُ بالإنْسانِ: الكافرُ" بما نصُّه: "فاللّام للعهدِ أوْ للاسْتغْراق؛ أي لاسْتغْراقِ كلِّ فردٍ من الكُفّار. مرَّضَه (أي: بلفظ "قيل")؛ لأنَّ العمومَ هوَ الظّاهر، ولا يلزمُ منهُ إنكارُ البعثِ؛ لِما عرفتَ من أنَّ الدّاعيَ إلى السُّؤالِ هوَ كمالُ الدَّهشةِ والحَيرَة، ولا يُناسِبُ تَخْصيصُهُ بالكُفّار[3]؛ لفواتِ المَقصود وهو بيانُ هَوْلِهِ التّامّ؛ فالمُرادُ أفرادُ الإنْسانِ جَميعًا"[4].

بلاغةُ الاستفهامِ بـ ﴿مَا﴾:

التّساؤُلُ عن سَبَبِ الزَّلزلة لِما هو فيهِ مِن الحَيرةِ والدَّهشَة

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿مَا﴾ الاستفهاميَّة في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾؛ إمّا للسُّؤالِ الحقيقيِّ عن سَبَبِ تلك الزَّلزلةِ وذلك الإخراجِ لِما هالَهُ منَ الدَّهشةِ والخُروجِ عنِ النَّمطِ المُعتاد، قال القونويُّ: "﴿مَا لَهَا﴾ زُلزلتْ بهذه المَرتبةِ الشَّديدةِ حتَّى أخرجَتْ ما فيها، ومِن جُملتِهِ الإنْسانُ المَدفون فيها؛ كأنَّه لفَخامتِهِ خَفيَ جنسُهُ فسألَ بلفظِ (ما) الَّتي يُسألُ بها عنِ الجنسِ غالبًا، فالمَعْنى: أيُّ أجناسِ الأسْبابِ حاصِلٌ لها في تلك الزَّلزلةِ الشَّديدةِ وإخراجِها أثقالَها"[5]، أوْ: "أيُّ شيءٍ للأرضِ في هذا الأمرِ الَّذي لم يُعهَدْ مثلُهُ"[6]، وإمّا للسُّؤالِ المَجازيِّ المُرادِ به الاستعظامُ مِن جانبِ المُؤمنينَ والتَّعجُّبُ من جهةِ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 526.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 32/ 234.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 24/ 225.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 20/ 391.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 20/ 391.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 22/ 205.

الكافرين[1]، قال الرّازيُّ: "يقولُ: ﴿مَا لَهَا﴾ وهوَ لَيْسَ بسُؤالٍ؛ بَلْ هوَ لِلتَّعَجُّبِ؛ لِما يَرى مِنَ العَجائِبِ الَّتي لَمْ تَسْمَعْ بها الآذانُ ولا تَطَلَّقَ بها لِسانٌ"[2]، وسرُّ الاختلافِ في حقيقيَّةِ هذا الاستفهام ومَجازيّتِهِ أنَّه إنْ كان المقولُ له بعضُهم لبعضٍ فالاستفهامُ حقيقيٌّ، وإنْ كان المقولُ له النّفسَ فهو استفهامٌ مجازيٌّ أُريدَ به الاستعظامُ أوِ التّعجُّبُ. ورجَّحَ القونويّ إرادةَ الاستفهام الحقيقيِّ على المَجازيِّ بقولِهِ: "الجَوابُ في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ يُشعِرُ بأنَّ الاسْتفْهامَ عَلى ظاهِرِهِ؛ فظهَرَ ضعفُ ما قيلَ: إنَّه للاستعظامِ بالنّظر إلى المُؤْمن، وللتّعجيبِ بالنِّسبة إلى الكافر، وما قيلَ أيْضًا مِن أنَّ قولَ البيضاويِّ: (يُبهِرهُم) إشارةٌ إلَى أنَّ الاسْتفْهامَ في ﴿مَا لَهَا﴾ للتَّفظيعِ والتَّهويل؛ فإنَّ اعتبارَهُ كونِ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ جوابًا له لا يُلائِمُ ذلك، والفظاعةُ والتَّهويلُ مَنشأُ السُّؤالِ المَذْكور"[3].

مَعنى (اللّام) في (لَها):

استثارةُ الزِّلزلِ السُّؤال عَن ثُبوتِ الاختصاصِ بتلك الحال

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ (اللّام الجارَّة) في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾؛ للدِّلالة على الاختصاص، قال ابنُ عاشور: "أيْ: ما لِلأرْضِ في هَذا الزِّلْزالِ، أوْ ما لَها زُلْزِلَتْ هَذا الزِّلْزالَ؛ أيْ: ماذا سَتَكونُ عاقِبَتُهُ"[4]؛ إذ وقوعُ الزّلزال وإخراجُ الأثقال دفعَ إلى السُّؤالِ عن سرِّ الاختصاصِ بذلك الزِّلزالِ العَجيب والإخراجِ الغَريب، والغرضُ: معرفةُ السَّبب للوُصول إلى العاقبةِ والنَّتيجةِ منه.

دلالةُ الاستعارةِ المَكنيَّة في ﴿مَا لَهَا﴾:

قصديَّة الجمادات بجَعلها مَحَلًّا للإرادات

وجّهَ النَّظمُ الكريمُ الاستفهامَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ إلى المقولِ له؛ إذْ بدأ الإنسانُ يسألُ بعضُهُ بعضًا: ما الَّذي ثبتَ

(1) أبو السُّعود إرشاد العقل السَّليم: 9/ 188.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 255.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 20/ 391.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 492.

للأرضِ حتَّى تتزلزلَ هذا الزِّلزالَ العَنيف، فنَزَّلَ: "الأرْضَ مَنْزِلَةَ قاصِدٍ مُريدٍ يَتَساءَلُ النّاسُ عَنْ قَصْدِهِ مِنْ فِعْلِهِ، حَيْثُ لَمْ يَتَبَيَّنْ غَرَضُهُ مِنْهُ"[1]، فقد شُبِّهت الأرض بذاتٍ يتأتَّى منها القصدُ والفعلُ والإرادةُ، ثمَّ حذفَ المشبّهَ به وأبقى من خواصِّه ولوازمِهِ التَّساؤُلَ عن سرِّ قَصْدِها.

حذفُ مُتعلَّقِ الجارِّ والمَجرور ﴿لَهَا﴾ والحالِ:

الإيجازُ في الكلام لشدَّةِ الدَّهشة والاستعظام

حذفَ النَّظمُ القرآنيُّ مُتعلِّقَ الجارِّ والمجرورِ والحالَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾؛ للعِلْمِ به، ولكونِهِ من شدَّةِ الدَّهشةِ يُريدُ الإيجازَ في عَرْضِ السُّؤال، قال ابنُ عاشور: "وَإِنَّما يَقَعُ مِثْلُ هَذا الِاسْتِفْهامِ غالبًا مُرْدَفًا بما يَتَعَلَّقُ بالِاسْتِقْرارِ الَّذي في الخَبَرِ، مِثْلَ أنْ يُقالَ: (ما لَهُ يَفْعَلُ كَذا، أوْ ما لَهُ في فِعْلِ كَذا، أوْ ما لَهُ وفُلانًا)؛ أيْ: مَعَهُ، فلِذلِكَ وجَبَ أنْ يَكونَ هُنا مُقَدَّرٌ؛ أيْ: (ما لَها زُلْزِلَتْ، أوْ ما لَها في هَذا الزِّلْزالِ، أوْ ما لَها وإخْراجَ أثْقالِها)"[2]. وبيَّنَ الطِّيبيُّ حَذْفَ (الحال) بقولِهِ عندَ تقديرِ الزَّمخشريِّ: "﴿مَا لَهَا﴾ زُلزلت؟، قيل: هذهِ إشارةٌ إلى أنَّ في الكلام حَذْفًا، وهو حالٌ من الضَّميرِ المَجرور؛ لأنَّه مفعولٌ؛ أي: أيُّ شيءٍ ثبتَ لها في هذه الحالِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [المدَّثِّر: 49]"[3].

فائدةُ العُدولِ عَن (لكِ) إلى ﴿لَهَا﴾:

الـزِّلـزالُ بَـدءُ الاستـذكـارِ وما تـحـقَّـق فـيـهِ الإنكار

عدلَ النَّظمُ الكريمُ عن ضَميرِ المُخاطَب إلى ضَميرِ الغَيبة في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ مع أنَّ الأصلَ أنْ يوجَّهَ السُّؤالُ عن السَّبب إلى مَن صدرَ منهُ الحدث؛ فإنَّ الزِّلزلةَ والإخراجَ صدَرا من الأرضِ؛ فالسُّؤالُ عن سبب ذلك يكونُ بالتَّوجُّهِ إلى الأرض بالسُّؤالِ؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 492.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 492.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 538.

فيقولُ لها: (ما لَكِ؟)، لكنّه عدلَ إلى توجيهِ السُّؤال للنَّفس أوْ بعضِهم لبعض لِما يعلمُهُ المؤمنُ والكافرُ من حدوثِ ذلك الأمرِ العجيب، فالمصدِّقُ يَستذكِرُ لما غلَب على طبعِ الإنسانِ من النِّسيان، والمُكذِّبُ يتعجَّبُ من وقوعِ ما أُخبِرَ به وأنكرَهُ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأثقال والأوزان:

الأثـقـالُ أمـرٌ ثابتٌ للأجسام، والأوزانُ طريقٌ لمَعرفةِ تلك الأثقال

ثَقُلَ: أصلٌ واحدٌ يتفرّعُ منه كلماتٌ مُتقاربةٌ، وهو ضدُّ الخِفّة، ولذلك سُمّي الجنّ والإنسُ الثَّقلين؛ لكثرةِ العَدَد[2]، والمِثقالُ -كمِفتاح- صيغةٌ للآلة؛ أي: ما يُثقَّلُ به الشَّيءُ، ومعنى الآلةِ في الأفعالِ اللّازمة يرجِعُ إلى خصوصيّةٍ أوْ صفةٍ في نفسِ الشّيءِ، وما يُثقَّلُ به الشَّيءُ عبارةٌ عن الثّقل الَّذي فيه[3]. وأمّا الوزنُ فهو تقديرُ ثقلِ الشّيءِ وخفّتِه وتعيينُ مقدارِه، ماديًّا كان أوْ مَعنويًّا. والميزان - كالمفتاح - اسمٌ لما توزَنُ به الأشياءُ[4]، فيظهرُ أنَّ الثِّقلَ والأثقالَ عبارةٌ عن مُلاحظةِ كُتلةِ (الذَّرَّة)، وهذه لا تختلفُ باختلافِ الأوضاعِ والأحوال. وأمّا الأوزانُ الَّتي منها المثقالُ فهو الوِعاءُ الَّذي توضَعُ فيه الأشياءُ المثقَّلة، ولذا عبَّرَ النَّظمُ بلفظِ (المثقال) في قولِه تعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ لأنَّه أرادَ كُتلةَ تلك الذرَّةِ وذلك العمَل، وعبَّرَ بالمَوازين في قوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ [القارعة: 6 - 7]؛ لأنَّه أرادَ الوعاءَ الّذي توزَنُ به تلك الأعمالُ عندَ وضعِها في الميزانِ فيثقُلُ بها.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 255.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثقل).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 18.
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 13/ 94.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والستون،
من سورة القَدْرِ إلى سورة النَّاس
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والستون، من سورة القَدْرِ إلى سورة النَّاس
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 68 ، 828 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-42-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 68 : المجلد الثامن والستون، من سورة القَدْرِ إلى سورة النَّاس.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-42-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7916426 بتاريخ 2026/01/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"